

التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط

الدكتور أحمد حامدة

قسم التاريخ – جامعة دمشق

التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط

تتمثل الحياة الاقتصادية عند الفينيقيين بالزراعة والصناعة والتجارة، ولا نملك إلا معلومات مباشرة قليلة تتعلق بهذا الموضوع .

ونظراً لأهمية التجارة الفينيقية ودورها في انتشار الحضارة إلى العالم القديم، فقد أثرنا معالجة هذا الموضوع. ونستطيع أن نستدل أهمية التجارة عند الفينيقيين من:

الأوديسية لهومروس، ومن حوليات الملوك، والكتابات الآشورية المأثورة، ومن انتشار الألهة الفينيقية^(٢)، ومن نقش نينوى، ومن نصوص متعددة في الكتاب المقدس: (الكتاب الأول من أخبار الملوك - سفر حزقيال - سفر اشعيا)، ومن مصادر متفرقة استنتجناها من النقوش الفينيقية، ومن المحطات التجارية الفينيقية التي انتشرت في أرجاء البحر المتوسط، وخصوصاً من قرطاجة، والتي عكست إلى حد "بعيد" الوضع الاقتصادي للوطن الأم.

من المعروف أن الفينيقيين كانوا أول من أنتج أربع مواد أساسية كانت مفقودة لدى بلدان حوض البحر المتوسط وهي:

الأخشاب والقمح والزيت والخمر، وعرف الإغريق الأرز اللبناني تحت اسم الأرز الفينيقي^(١).

وجدير بالذكر أن غابات لبنان الكبرى لم تصدر الأخشاب فحسب، بل أنتجت

(٢) نكرر ما ذكرناه مراراً، التسمية "الفينيقية" هي تلك التي أطلقها الإغريق على كنعانيين "المساحل الشامي" لا سيما الأوسط منه. ولا نجد أثراً للتسمية "الفينيقية"، في وثائقنا المحلية. وأول مصدر يوناني يطلق التسمية "أوديسية، هومروس" وبعد ذلك هيكاتيوس الملتيصي وهيرودوتس إلخ... "رئاسة التحرير"

القار (الزفت)، والصمغ (الراتنج) أيضاً لم يفتقر الفينيقيون واستطاع الفينيقيون بواسطة الأرز الفينيقي، وبناء السفن الشهير، والملاحة المكتسبة من البابليين بمساعدة النجوم أن يكونوا ملاحين مهرة لعصرهم. كما أن الزيوت لم تستخدم كمواد غذائية فقط، بل استخدمت كمواد عطرية أيضاً.

لقد امتدت التجارة الفينيقية من الشرق إلى الغرب، وكان البحر المتوسط بحراً فينيقية قبل أن يصبح بحراً يونانياً أو بحراً رومانياً. ولما توسعت الأسواق عمل الفينيقيون سماسرة للبضائع من كل الأصناف والأنواع، حيث كانت تنقل هذه البضائع من الشرق إلى الغرب بواسطة السفن (٦).

وازدهرت التجارة مع المستعمرات والمحطات التجارية وبخاصة مع قرطاجنة، ووصلت حتى شمال إفريقية، وصقلية، وأشبانيا، وسواحل الكرومية، وتكونت مراكز تجارية في كورنيتوس، وتاهيرا، وكاتيرا، وتاسوس (٧).

وصدر الفينيقيون موادهم وبضائعهم، وحصلوا مقابل ذلك على المعادن والأواني الفخارية، وحتى الكهرمان الشمال أوربي، والقصدير الإنكليزي، وتاجروا أيضاً بالعبيد والخيل والبغال والعاج والحجارة الثمينة، والأقمشة وخشب الأبنوس من بلاد العرب، ووصلوا عبر البحر الأحمر إلى مراكز تجارة الذهب الأفريقي.

بالإضافة إلى ذلك، قامت علاقات تجارية امتدت إلى داخل فلسطين عبر البحر الأحمر، وحتى الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب، والسواحل الأفريقية المقابلة لها (٨).

لقد كان الفينيقيون ما بين ١٢٠٠ ق.م إلى ٨٠٠ ق.م قوة تجارية لا منازع لها، وعملوا آنذاك على احتكار التجارة العالمية، وشحنوا منتجات مصر وبابل وآشور وسورية إلى العالم اليوناني وإلى شمال إفريقية، وصقلية، وإسبانية، وحتى سواحل أفريقية (٩).

وأتى الدوربون الذين اقتحموا بلاد اليونان في القرن الثاني عشر ق.م كقوة برية، إلا أنهم لم يكونوا متدربين على الاستفادة من الموانئ والخلجان والطبيعة التي أنعم الله بها على السواحل الإيجية، كما لم يتقنوا أعمال التجارة في حالتهم البربرية المتوحشة، وكانوا عاجزين عن أن ينتجوا بأنفسهم ويقدموا ثمن البضاعة، إلا أنهم رغم ذلك كانوا يطلبون أجود منتجات الشرق، لذلك سمحوا للتجار الفينيقيين أن يعرضوا بضائعهم للبيع في الساحل الدوري. وهكذا دخل الفينيقيون إلى العالم اليوناني، وأسست محطات تجارية في كورنتوس، وتاهيرا، وكاتيرا، وتاسوس (٦).

دامت سلطة الفينيقيين المطلقة على البحر المتوسط، وبحر إيجه، والبحر التيراني ثلاثمائة سنة كاملة، إلا أن تجارتهم الرئيسية كانت مع بلاد اليونان، ولم يكن عند اليونانيين أي شيء يقدمونه للفينيقيين على موادهم الكمالية إلا المعادن والعبيد. وقد أظهر الفينيقيون حُبهم الشديد لليونانية الشقاء زرقاء العينين، وعندما يستطيعون أن يحصلوا على شيء ثمين يشتهونه ليس عن طريق التجارة فكانوا يختطفونه دون تردد. إلى جانب خبرة الفينيقيين في الملاحة البحرية، استخدموا علم الفلك واستفادوا منه في هذا المجال، وأخذوا معرفتهم الفلكية عن البابليين، وبذلك تمكنوا من الإبحار في المياله المجهولة، وبواسطتها اهتموا إلى طريقة سير النجوم.

وجاء القرن الثامن قبل الميلاد، وأحسن سكان اليونان الجدد بمزايا وطبيعة وطنهم وبنوا السفن، وبدؤوا يتنافسون مع الفينيقيين أولاً في مياهم الخاصة في بحر إيجه، ثم ابتعدوا بعد ذلك إلى صقلية، وجنوب إيطاليا، ومصر، وبذلك أخذوا من المعرفة الفلكية للفينيقيين، وأجروا تطبيقاتهم، واستفادوا من الملاحة بشكل مستقل، وهكذا دخلوا منافسين للفينيقيين وخرجوا فائزين عليهم، وانسحب الفينيقيون بالتدريج من بحر إيجه، وبحثوا عن أسواق أخرى في غرب البحر المتوسط (٧).

ولم يكن مستغرباً أن تزداد ثروة وغنى المدن الفينيقية، مما حدا بالآشوريين إلى

الزحف بقواتهم حتى الساحل الفينيقي، وأخضع آشور بانيبال (٨٨٣ ق.م - ٨٥٩ ق.م) كلاً من صور وصيدا وجبيل وأرواد، وفيما بعد تركز وصول الملوك الآشوريين إلى ساحل البحر المتوسط، ودفعت المدن الفينيقية قسماً من أرباحها التجارية على شكل أتاوات وضرائب للآشوريين عن طريق القوة.

وعلى الرغم من ذلك فلم تتضرر التجارة الفينيقية، وهناك تقارير ونقوش بارزة في حوليات الملوك الآشوريين تظهر النجاحات التي حققها الآشوريون، وعدد الغنائم الآشورية. وهذا يدل على ثرواتهم الساحلية، وهناك نقش بارز لا يعطي فقط صورة للسور المحيط بالمدن الفينيقية، بل يظهر قسماً من الأسطول الفينيقي^(٨).

ويجدر بالذكر أن نوعين رئيسيين ظهرا على نقوش آشورية بارزة من نينوى، يظهران هروب لولي من مدينة صور: النوع الأول يعالج أغراضاً حربية واضحة ويشغل مؤخرة السفينة الخلفية، ومقدمة السفينة بارتفاع سطح الماء، حيث انتظم البحارة في صفين فوق بعضهما البعض، وامتد المجدفون من السطح الداخلي نحو البحارة وعلقوا الدروع على السطح العلوي، وارتفعت معدات الشرع لفتح الشرع فوق السفينة.

أما النوع الثاني فربما كان سفينة تجارية، يظهر جندياً للدفاع، وكلا الطرفين كان مرتفعاً، ووزع عمال الزورق كما في النوع الأول، لكن فقدت معدات الشرع فوق هيكل السفينة.

إضافة إلى ذلك وجدد نموذج ثالث لزورق صغير، وعلى نقش صارغون الثاني في خورسباد، أحد عمال الزورق الخلفيين يحمل رأس حصان، والمجدفون يجلسون في صف واحد بينما لم يلاحظ المحاربون ولا الدروع.

نستنتج من النقوش المذكورة ومن شكل السفينة التجارية أن سفن النقل البسيطة والمتواضعة لم تكن محمية وخلت من وسائل الدفاع.

هذا وقد اتبع الفينيقيون مبدأ الإمكانية في رحلاتهم البحرية، وعملوا على جعل مراسيهم لا تبعد أكثر من سفر يوم واحد عن بعضهم، وبذلك يستطيع المرء أن يمضي ليله في البر، وعلى الرغم من ذلك فلم يخافوا أمام الأهداف البعيدة، واستخدموا الجزر معاقل لهم في البحر المفتوح، وبذلك كانت هذه الجزر قواعد استراتيجية للفينيقيين.^(١)

وتضاعل مجد الفينيقيين مع دخول الآشوريين إلى الساحل الفينيقي، لكنه لم ينطفئ، واستمر الفينيقيون في السيطرة على المعاملات التجارية والاقتصادية ما بين موانئهم الخاصة ومصر وشمال أفريقية وبحر الغرب، وحققوا من جراء ذلك أرباحاً هائلة، وتوزعت إيراداتهم على شكل إتاوات وضرائب مع شريكهم الملك الآشوري، ولم يكن مستغرباً أن ثارت وتمزقت المدن الفينيقية على الظلم الآشوري. وكانت سيادة الآشوريين وخلفائهم البابليين الجدد (عائقة) جداً، فهم لم يحدوا التجارة الفينيقية، بل تقاضوا إضافة إلى ذلك نصيب الأسد من الأرباح.

وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق. م، وبادت بابل عام ٥٣٨ ق. م واستقبل ذلك بالترحاب والتهليل في مدينتي صيدا وصور، واعتلى الفرس العرش واستبشر الناس بالمجد والشهرة وأفضل الأيام للفينيقيين، وأصبح ملك صيدا حليفاً للفرس، وأمير البحر في الأسطول الفارسي، وتبين فيما بعد سيطرة الأخمينيين، وجشع القواد الفرس اللامحدود، ووجد الفينيقيون أنفسهم في الوضع نفسه الذي كان في ظل الآشوريين، وأصبح الفرس من الآن فصاعداً مسؤولين عن التجارة البحرية للعالم القديم. لكن ما بقي لهم من الأرباح وما بذلوه من جهود بعد دفع الضريبة للملك الكبير وقواده الجشعين هو قليل من التعب، لذلك لم يكن مستغرباً أن نجد صيدا وصور وأرواد وطرابلس تقف إلى جانب القواد الفرس المتمردين، أو إلى جانب مصر، وهذا يمكن أن يؤدي بالتالي إلى تدمير مدنهم.

ومن المدهش أيضاً ما رأيناه من معظم المدن الفينيقية التي فتحت أبوابها أمام

الاسكندر المقدوني عدا مدينة صور، التي بدأت مقاومة مستميتة، بينما استسلمت صيدا راضية للإسكندر، وساهمت فيما بعد بطريقة فاصلة في قرار مدينة صور بالمقاومة، وذلك بسبب التنافس الشديد بين هاتين المدينتين.

واحتفظت فينيقية في ظل الفترة الهلنستية بمركزها، ولم تعد التجارة البحرية في أيدي الفينيقيين لوحدهم، بل شاركهم رودوس بقسم كبير، وأصبحت الإسكندرية مركزاً لتجارة العالم القديم، ومع ذلك كان أمراء البحر الكبار هم فينيقيين، فمثلاً فيلوكليس أمير البحر لديميتريوس بوليوكيتس هو من مدينة صور، كذلك ازدهرت المدن الفينيقية في أيام البطلمة، ومن ثم السلوقيين المتأخرين. وانفتح العالم اليوناني مجدداً لهم، وتدفقت الدماء الهندوأوربية في هذه المرة من اليونان ومقدونية، وهذا أعطى الشعب القديم انتعاشاً جديداً، وأصبح هيلينياً في الواقع، لكنه لم ينسَ بهذا إرثه.

أما في الفترة الرومانية، فقد شغل الفينيقيون واليونانيون حيزاً كبيراً من التجارة في الدولة (المملكة- الإمبراطورية) الرومانية (١٠).

كان لموقع فينيقية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وطبيعة أرضها التي تكوتت من أرض ضيقة محصورة بين مصب نهر العاصي شمالاً ونهر بيلوس وفلسطين جنوباً، ويحدها من الشرق جبال اللاذقية وسلسلة جبال لبنان، ونظراً لاقترب الجبال من البحر باحتياجات السكان، كما أن انتشار السلاسل الجبلية جعل اتصال السكان بالداخل وفيما بينهم صعباً إلى حد كبير، مما حدا بهم للتوجه نحو البحر، يعيشون على أسماكهم في بداية الأمر، ثم اتخذوه سبيلاً للتجارة مع الأقطار المطلة عليه، حتى برعوا في هذا المجال. وساعدهم على ذلك أمور متعددة أهمها إلفتهم للبحر الذي عاشوا على شواطئه، ووفرة أخشاب الأرز على الجبال المجاورة لهم مما مكنهم من استخدامها، كذلك لعب صفاء السماء دوراً في استعانة الفينيقيين بالنجم القطبي في أسفارهم. كل ذلك ساهم في نجاح الفينيقيين في التجارة.

وكانت البضائع الخفيفة الوزن تنقل براً على ظهور الدواب، بينما كانت الطرق البحرية والنهرية تستخدم كلما ساحت الفرصة لنقل البضائع الثقيلة مثل الخشب^(١١).

وتوضح النقوش الآشورية سفناً نهرية صغيرة يقودها فينيقيون، وهي تفرغ حمولتها من الخشب في بلاد ما بين النهرين.

كما يتردد ذكر تجار جبيل في الكتابات المصرية ابتداء من المملكة القديمة فصاعداً وليس مستبعداً أن تكون الملاحة والتجارة والتبادل الفكري قد استمر بين المنطقتين بدون انقطاع حتى استقلال فينيقية.

وقد شجعت الإمبراطوريتان المصرية والآشورية هذه التجارة كما رأينا، لما كانت تعود عليهما من فوائد اقتصادية. وقد تركت المدن الساحلية تمارس هذه التجارة بحرية وبدون تدخل من هاتين القوتين^(١٢).

لقد برع الفينيقيون في صناعة الصباغ الأرجواني، وجاء اسمهم (الفينيقيون) بسبب شهرتهم بهذا الصباغ، الذي يكلف الحصول عليه وقتاً ومالاً كثيراً. وجدير بالذكر أن الفينيقيين لم يتاجروا بهذا الصباغ بل تاجروا بالأقمشة المصبوغة به. لقد استوردوا الحرير الغالي الثمن من الصين، وصبغوه بالأرجوان الفينيقي الصنع، وكلف كل نصف كيلو غرام من الحرير حوالي ثمانية وعشرين ألف دولار^(١٣).

أما الصوف والأقمشة الأخرى، فقد جلبوها من المناطق المجاورة لفينيقية، وكانت أسعارها سخيّة، والكتان الخفيف استوردوه من مصر.

وقد عرف الأرجوان الأحمر، والقرمزي الذي كان أرخص أنواع الأرجوان ومع ذلك فظل مرتفع الثمن . وكان يحتفظ به دون غيره لملاص الأعياد، ويستخدمه الوجهاء ونزو المناصب الحكومية والدينية^(١٤).

لقد كان تصنيع الأرجوان على طول الساحل الفينيقي بكامله، وفي مستعمرات فينيقية كثيرة إلا أن أرجوان مدينة صور بقي هو الأغلى ثمناً، واستعمل في روما رمزاً للإمبريالية، ومُنِعَ من الاستعمال العام بين الآونة والأخرى^(١٥).

دليل آخر على تجارة الفينيقيين يقول النص ما يلي:

(نحن بني كنعان من صيدا، من مدينة الملك، التجارة قذفتنا إلى هذا الساحل البعيد أرض الجبال، نحن ضحينا بشاب للآلهة العلوية والإلهات العاليات في السنة التاسعة عشرة لحيرام ملكنا العظيم، وذهبنا من إيزيون وحبير في البحر الأحمر، وسافرنا مع عشر سفن، وصرنا في البحر جميعاً (معاً) سنتين اثنتين حول الأرض التي لهم، وافترقنا فجأة بسبب عاصفة، ولم نبق مع رفاقنا، وجئنا إلى هنا اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء إلى الساحل الذي أنا عليه أمير البحر أراقبه، لترضى الآلهة العلوية والإلهات العاليات.) (١٦)

يفيدنا النص المذكور في أن التجارة قذفت بهم إلى البلاد البعيدة من جهة أخرى يشير إلى منصب أمير البحر الذي كان عمله مراقبة البحر .

كما يوضح لنا نقش أبي بعل الذي يعود للقرن العاشر قبل الميلاد واكتشف في مدينة جبيل وجود علاقة تجارية قديمة بين مصر ومدينة جبيل، يقول النص الآتي:

(هذه الصورة (اللوحة التذكارية) حضرها أبي بعل ملك جبيل، ابن يحملك ملك جبيل في مصر، لإلهته بعل جبيل، وسنيه على جبيل) (١٧)

لقد اشتهر الفينيقيون بمهارتهم في الأعمال النحاسية والبرونزية والمعادن الثمينة، وكانوا يحصلون على النحاس من قبرص وبعض البلاد الآسيوية، وعلى الذهب والفضة من أثيوبية، وربما من أسية الصغرى، وكان الطلب على هذه المعادن والقصدير كبيراً، ولذلك سعى الفينيقيون للحصول عليها أينما كانت متوفرة. ورغم أنه لم يعثر على بقايا معامل المعادن حتى الآن، إلا أنه ربما يعثر عليها في المستقبل، وذلك لأن ذكر مصاهر الحديد والنحاس يرد في نقوش العمران الجنائزية، كما تظهر عليها صور المطارق والمقابض وأدوات أخرى مماثلة، كما أن هناك إشارات في كثير من الكتب القديمة على مهارة هؤلاء العمال الفينيقيين في هذا المجال (١٨).

وقد امتاز الفينيقيون في صنع وتصميم أدوات الزينة المعدنية من الفضة والذهب: والدليل التالي يخدمنا في هذا الموضوع:

نقش بت نعم المكتشف في مدينة جبيل والذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد. يقول النقش الآتي:

(في هذا التابوت (أرقد) أنا بت نعم، أم الملك عزي بعل ملك جبيل، ابن فلط بعل كاهن بعل (جبيل)، بثوب وقلنسوة (غطاء الرأس للسيدات) علي (على رأسي) وعلبة أحمر الشفاه الذهبية لعمي مثل أمهات الملوك اللواتي كن قبلي.)^(١٩)

يرشدنا النص المذكور إلى صناعة الملابس، واستعمال أدوات الزينة، ووجود الذهب والعلب الذهبية الموجودة ضمن الأثاث الجنائزي الذي كان يدفن مع الأموات .

كذلك وجدت أنواع من العقود والأقراط والقلائد والأساور ليس في فينيقية وقبرص فقط بل في قرطاجة وسردينية. أما أدوات الزينة فقد وجدت في إسبانية، وظهر بأنها من صنع فنيين محليين تأثروا بالفينيقيين.

كما وجدت الأواني والأدوات الفخارية وبأعداد كبيرة في كثير من الأماكن الفينيقية^(٢٠).

بالإضافة لما تقدم، لدينا نقش تبنيث المكتشف في مدينة صيدا، والذي يعود لنهاية القرن السادس قبل الميلاد، ويمكن أن نستنتج من النص أن بعض الملوك، السابقين قد كنزوا في قبورهم الذهب والفضة والأشياء الثمينة، ونتساءل كيف حصل هؤلاء الملوك على الذهب والفضة والأشياء الثمينة، ولا نجد إلا جواباً يشير إلى ممارستهم للتجارة وجمعهم الكنوز والثروات التي ترافقهم إلى الأبد.

يقول النقش ما يلي:

(أنا تبنيث كاهن عشتروت ملك الصيدونيين، ابن اشمن عزر كاهن عشتروت ملك

الصيدونيين، أرقد في هذا التابوت، لتكون من كنت إي إنسان يطأ هذا التابوت؟ لا لا تفتح عليّ (لا تكشفني) ولا تزعجني، لأنه لا أحد أدى لنا (أرانا) فضة، لا أحد أدى لنا (أرانا) ذهباً، أو أي شيء ثمين، غير أنني أرقد في هذا التابوت. لا لا تفتح عليّ، وإزعاجاً تزعجني، فلن تكون لك ذرية (أولاد) في الحياة تحت الشمس، ولا قبر بين الأموات. (٢١)

أما نقش كيلامو الذي يعود للقرن التاسع قبل الميلاد والمكتشف أثناء الحفريات في زنجرلي فيرشدنا إلى الفضة والذهب والكتان والحيوانات التي كانت تربي آنذاك وهذا كله يساهم في عملية التجارة سواء أكانت داخلية أم خارجية يقول النص ما يلي:

(.... أنا كيلامو بن حياء، جلست على عرش أبي، أمام الملوك الأقدمين عوى الموشكايم مثل الكلاب، وأنا لمن (للواحد) كنت أباً، ولمن (للتاني) كنت أمّاً، ولمن (للتالث) كنت أخاً، ومن ما رأى من قبل شاة، جعلته صاحب قطع غنم، ومن ما رأى من قبل بقرة جعلته مالكا قطع بقر ومالكا فضة ومالكا ذهباً، ومن ما رأى الكتان منذ صغره، كسوته في أيامي بثوب) (٢٢).

كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة العاج والحفر على العظام، وقد وجد صندوق من العاج في مدينة أور، يعود للقرن السابع قبل الميلاد، وجد على غطاء هذا الصندوق نقش فينيقي اكتشف أثناء التنقيبات الإنكليزية في تل المقير في أور، في جنوب ما بين النهرين. يقول النقش ما يلي:

(هذا الصندوق أهدته أمه بعل، بنت فطاس، عبدة هدية لآلهتها عشترت، لتباركها في أيامها. سيدنا ... ابن يساد.) (٢٣).

أما عن مهارة الفينيقيين في الأعمال النحاسية والبرونزية فلدينا النقش التالي الذي اكتشف في مدينة كيتيون (لارنكا اليوم) ويعود للقرن الرابع قبل الميلاد:

(في اليوم الرابع والعشرين من شهر ميرفا، في السنة السابعة والثلاثين لحكم بومي

ياتون ملك كيتيون ودالي، ابن الملك ياتون ملك كيتيون ودالي. التمثال هذا الذي وهبته وقدمته من النحاس (البرونز) ياش زوجة بعلات ياتون، خادم معبد عشترت، ابرسمعا، ابن ياتون، لربتها عشترت، لتسمع دعاءها) (٢٤).

لقد كان الملك في المدن الفينيقية ملكاً حكم البلاد، وكاهناً للآلهة، وقائداً أعلى للجيش، وبناء للمعابد والتحصينات والأسوار، كما كان تاجراً كبيراً ويستدل من الوثائق الكتابية أن الملك كان على رأس التجارة، ولعب دوراً ملحوظاً فيها فكان أكبر مالك للسفن، كما وجد تحت تصرفه عدد من العملاء التجاريين الذين يحققون عمليات تجارية لحسابه ويتكليف منه في البر والبحر (٢٥). وإليه يعود تحديد وإقرار الملاحة البحرية والتجارة، ولهذا كان ينظر إليه على أنه التاجر الأول في المملكة، ويخدمنا بهذا الخصوص الدلائل التالية:

• حكم حيرام الأول (٩٦٩ ق.م - ٩٣٦ ق.م)، وقد ربح بسبب التجسار في البحر المتوسط والبحر الأحمر ثروات كبيرة استثمرها في إقامة المباني الضخمة (٢٦).

• وكتب نجيب ميخائيل ابراهيم قائلاً: خاض الملك مغامرات مستمرة بسبب نشاطاته التجارية على وضعه كملك (٢٧).

■ ومن رسالة حثية اهتمت بنقل الحبوب في إحدى المجاعات في الساحل الجنوبي من الأناضول استنتج نوغايرول Nougayrol أن ملك أوغاريت كان يأمر عند شحن كل سفينة أنه يؤخذ حوالي ٥٠٠ طن من على ظهرها (٢٨). وهنا يشك المرء في هذا الرقم كما يشك في حمولة السفينة.

• لدينا النص ٤.٣٣٨ KTU، الذي نستنتج منه أن الملك كان يقسوم باستئجار السفن من أجل التجارة ونقل المواد التجارية (٢٩). يقول النص ما يلي:

- ٥٤٠ شيكلاً

- فضة من أجل السفن
- التي انضمت إلى سفن (اسطول أوغاريت التجاري)
- إلى ملك جبيل
- ٥٠ شيكلاً فضة
- أخذ ملك جبيل
- من أجل سفينة
- ٤٠ شيكلاً فضة
- أجارها

كذلك لدينا الوثيقة ٢٠٣٨. KTU (٣٠) ، التي تمثل رسالة موجهة من ملك صور إلى ملك أوغاريت، وتظهر عمق العلاقات بين أوغاريت وجبيل، كما تشير إلى وجود علاقات تجارية نشيطة بين ملك أوغاريت من جهة، وكل من مصر وجبيل وعكا من جهة أخرى.

قوانين المعاملات التجارية البحرية:

يعتبر الفينيقيون أول من وضع قوانين المعاملات التجارية البحرية، التي عرفت باسم Rhodian Law، نسبة إلى جزيرة رودوس. وينص القانون على أن أية خسارة يتكبدها قبطان بحري نتيجة محاولاته لإنقاذ سفينته إذا تعرضت للخطر (غرق مثلاً)، لا بد أن ينقسمها جميع أصحاب البضائع الذين لهم بضائع في هذه السفينة بنسب معينة، ومثلاً إذا اضطر قبطان سفينة لرمي بضاعة أحد التجار في البحر في سبيل إنقاذ سفينة من غرق محدد فإن خسارة هذا التاجر يتحملها كل التجار الذين لهم بضاعة في السفينة وصاحب السفينة. وكان هذا القانون مطبقاً في كل أنحاء حوض

البحر المتوسط ويعرف في القانون البحري الحديث باسم Gross Average (٣١)

العملة الفينيقية:

بدأ استخدام العملة في التجارة في بلاد الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد، وشاع في بداية القرن السادس ق. م. إلا أن الفينيقيين لم يهتموا بفكرة استخدام العملة مبكراً، رغم ميولهم ونزعاتهم التجارية القديمة واتصالاتهم الكثيرة واحتكاكهم مع أقوام بدائية في معاملاتهم التجارية، أكسبتهم مهارة في استخدام أسلوب المقايضة. وحتى عندما كان الفينيقيون خاضعين لسيطرة الفرس لم يقوموا بأية محاولة لصك عملة، لأنهم لم يروا فائدة من ذلك، ولأن تجارتهم مع بلاد الإغريق كانت قد اضمحلت تماماً.

وحوالي منتصف القرن الخامس ق. م، ضربت أول عملة فينيقية في صور، وتبعها صيدا وأرواد وجبيل في أواخر القرن الخامس ق. م أوائل القرن الرابع ق. م وربما يدل على هذا الضعف السياسي الذي أصاب الإمبراطورية الفارسية وانبعثت التجارة الفينيقية مع بلاد الإغريق. أما باقي المدن الفينيقية فلم تضرب عملتها حتى الفترة الهلنستية، وقد كانت هذه النقود مصنوعة من الفضة أو البرونز، أما العملة الذهبية السائدة آنذاك فكانت الدارية daric، نسبة إلى دارا الفارسي (٣٢).

أما المدن الفينيقية في الغرب، فقد بدأت صك عملتها في وقت لاحق، وكانت أول نقود قرطاجية تتكون من ذهب على الطريقة الفينيقية، ومن دراهم فضية على مقياس عملة أتينا، وقد ضربت هذه النقود في صقلية في نهاية القرن الخامس ق. م، عندما كانت قرطاج في حاجة إلى نقود لتدفع المرتبات لجنودها، وقد صكت هذه المجموعة من النقود على الطريقة الفينيقية من ذهب وبرونز والكتروم (مزيج طبيعي من الذهب والفضة).

أما العملات الفضية فقد كانت نادرة حتى أواخر القرن الخامس ق. م، حين استولى

حميلكار على مناجم الفضة الإسبانية، ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م سادت النقود البرونزية في قرطاجة وانتشرت إلى أماكن عديدة حتى بريطانية .

أما المدن الفينيقية الأخرى في الغرب، التي كانت تمتلك عملات خاصة بها وذلك قبل القرن الثالث ق.م، فتمثل في صقلية التي بدأت في سك عملتها في القرن الخامس ق.م، وقادش، وأبيزا (القرن الثالث ق.م)، وكانت قرطاجة تملك دار سك في قرطاجة الجديدة في إسبانية، وكان معظم عملاتها من الفضة (٣٣).

وفيما يلي لدينا نقش من مدينة كيتيون (لارنكا اليوم) يعود للقرن الرابع أو الثالث ق.م، والنقش عبارة عن قائمة بمصاريف إدارة أحد المعابد في كيتيون، يقول النص:

(مصاريف شهر ايتانيم هي: بهلال شهر ايتانيم ٢ قفا وربع لآلهة الهلال. للبنائين الذين بنوا معبد عشترت في كيتيون قفا..... للحراس الأماميين. والناس الذين يحرسون على الباب ٢٠ قار. وللناس من فئة بحر الذين أدوا الخدمة المقدسة في هذا اليوم قفا. للصبيين الاثنى ٢ قفا. للذباحين الاثنى (كاھني الأضاحي) قار واحد. للرجلين الاثنى الذين (جلبوا الولد إلى) مع الحراس الأماميين ١ قفا و.... للصبيان الثلاثة ٣ قفا. للحلاقين العاملين بالخدمة المقدسة ٢ قفا. للنحاتين الذين عملوا الأعمدة في معبد ميكل () .)

لرئيس الكتاب عبد اشمن ورفاقه في هذا اليوم ٣ قار وقفا.

للوطيين والعملاء ٣ قار و (....)

نستنتج من النص المذكور وجود وحدات نقدية ثلاث هي:

أ- قفا: وهي وحدة نقدية غير معروفة القيمة، إلا أنها أكبر من قار واحد.

ب- قار: هي وحدة نقدية صغيرة.

ج- فا: نوع آخر من النقود، وعلى الأغلب أقل قيمة من قار (٣٤)

كذلك نقش إكليلي يعود للقرن الأول قبل الميلاد، محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس يفيدنا في التعرف على وحدة وزنية هي دارايكان والمقصود بها دراخما أي دراهم وقد صيغت بالجمع من اليونانية، وهناك دراهم فضية منخفضة القيمة. يقول النص ما يلي:

(في اليوم الرابع للاحتفال الديني، في السنة الرابعة عشرة من عمر صيدا، تقرر في اجتماع الصيديونيين: أن يكلل شمع بعل بن مجان، الذي هو مدير المعبد (رئيس الطائفة)، فوق معبد الآلهة، وعلى مباني حوش (فناء) معبد الآلهة، بإكليل ذهبي وزنه ٢٠/٢ دارايكان من الذهب الخالص، لأنه بنى حوش (فناء) معبد الآلهة، وعمل كل ما عليه من خدمات، ليكتب هذا القرار الناس الذين يجلسون عندنا في الأمام، فوق معبد الآلهة، على شاهدة ذهبية (منقوشة) ويضعونها في رواق معبد الآلهة، ولتكون الطائفة كفيلاً على هذه الشاهدة. سوف يدفع مواطنو صيدا ٢٠/٢ دارايكان (وليتعين) من الفضة للآلهة (بالفضة الخالصة)، ليعرفوا أن الطائفة تعرف أن تدفع هدية لمن أدى خدمة أمام الطائفة.) (٣٥).

لدينا نقش من مدينة لايبثوس يعود للقرن الثالث ق.م (٣٦) يرشدنا إلى وحدة وزنية هي كار، وهي غير معروفة.

التجارة والتنظيم التجاري:

تستلزم التجارة وجود تنظيم محدد لها، وقد عرفت مؤسسة "تمكار" في فينيقية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وقد وجد نظير لها في أوغاريت "مكارم" (٣٧)، وهذا يعني عدداً كبيراً من التجار الباعة وقد وجدوا في أوغاريت.

وعندما تظهر التمكار في السجلات الأوغاريتية، فهي تظهر مشتركة مع جماعات مهنية تابعة للملك، وترتبط هي الأخرى مع التابعين.

كان التمكار مستخدماً عند الملك، يستلم الأرض ويستخدمها مقابل أن يبقى موضوعاً

تحت تصرف الملك خلال حياته، ويقوم بتنفيذ الصفقات التجارية الملكية، إضافة لذلك كان عليه أن يقوم بتقديم خدمات أخرى ليست لها أية علاقة مع مهنته الأصلية. وتقرير المكافأة لا يقوم على توزيع الأراضي فقط، بل على المنتجات الطبيعية من المخازن الملكية أيضاً^(٣٨).

ويتكوّن التجار من مجموعات يصعب فصلها بعضها عن بعض:

١- التجار الذين كانوا في أوغاريت.

٢- التجار الذين كانوا خارج أوغاريت.

تتفرغ المجموعة الأولى للملك، بينما تقوم الثانية بمتابعة النشاطات والفعاليات الخاصة الحقيقية والأصلية. وكان هؤلاء التجار الذين يعملون داخل أوغاريت كوسطاء وسماسرة ومحضلي ضرائب، أما الذين كانوا خارج أوغاريت كتجار للملك، إلا أنهم لم ينسوا أرباحهم الخاصة^(٣٩).

هذا ونعرف من أرواد في فترة متأخرة أن إدارة ميناء أرواد تألفت من أربعة أشخاص عرفوا باسم (الليمينارك)، وكان الليمينارك في أيدي موظفين مدنيين طبقاً للتقاليد اليونانية، أما في نهاية فترة السيادة الرومانية، فقد كان تعيين الليمينارك يتم من موظفين تعينهم الحكومة الرومانية^(٤٠).

وهكذا امتازت المنتجات التجارية الفينيقية بنموذجيتها والإقبال عليها، وأعمال المعدن التي مدحها هومروس، ووجدت قشور من البرونز والمعادن الثمينة في أماكن كثيرة، والشواهد على انتشارها الواسع، وقد كشف أصلها الفينيقي نفسه ليس فقط بالشكل، بل بالمنقوشات. واستورد النحاس من قبرص وداخل بلاد الشرق الأدنى، والقصدير من إسبانية، والفضة من أسية الصغرى وأثيوبية، والذهب من أثيوبية، وقد صنعت هذه المادة بمهارة في ورشات يشرف عليها الفينيقيون، وعهدت بعد ذلك إلى التجار.

وكانت المدن الفينيقية مراكز مزدهرة للصناعة التحويلية التي أعدت للتصدير قبل كل شيء، ولعبت المدن الفينيقية دوراً كبيراً في تجارة الوساطة، إذ كانت مراكز تجارية، أتت من داخل بلاد الشرق الأدنى إلى مراكز منطقة البحر المتوسط، وكانت قبل كل شيء ذات خصائص جوهرية ومتخصصة بالزراعة، كما وصلت الأعمال البرونزية على هذه الطريقة. وبالعكس جلبت بضائع الغرب إلى الشرق، وظهر جزء منها أثناء حفريات مراكز بلاد ما بين النهرين.

هذا في البحر، أما في البر فقد اعتمدت التجارة التي شكلها الأمراء أو التجار داخل البلاد على القوافل، ومن ثم توجهت إلى الساحل وفي البحر نقلت بوسائل نقل خاصة، حيث اعتمدت على الأسطول الكبير.

الهوامش

- (1) Hitti, Philip K., *History of Syria including Lebanon and Palestine*, London, 1951, p. 79 – 98.
- (2) *Ibid*, p. 98;
- (3) Moscati, s., *Die Phönizier von 1200 vor Christus bis zum untergang Kartagos*, zürich, verlag., 1966, p.151. Baramki, D., *Die Phönizier*, Stuttgart, 1965, p. 77 .
- (4) Klengel, H. , *Händler und Händler im alten Orient*, Hermann Böhlau Nachf. Wien. Köln. Graz, p. 205 – 207.
- (5) Baramki, D., *Die phönizier*, Stuttgart, 1965, p.77.
- (6) *Ibid*, p. 77.
- (7) *Ibid*, p. 77 – 78.
- (8) Klengel, H., *Handel und Händler im alten Orient*, , p. 209.
- (9) Moscati, S., *Die phönizier von 1200 v.chr. bis zum untergang Kartagos*, , p. 162 – 163 .
- (10) Baramki, D., *Die phönizier*, Stuttgart, 1965, p. 79 – 81.
- (11) د. حسن عبد العزيز أحمد، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الخامسة، حزيران 1985، الرياض- السعودية ، ص 162-175.
- (12) المرجع السابق، ص 162-175.
- (13) Klengel, H., *Handel und Händler im alten Orient*, , P. 212-215; Hitti, Philip K., *History of Syria*..., P. 95.
- (14) Schmökel, Hartmut, *Kulturgeschichte des alten Orient*, Mesopotamien, Hethiterreich, Syrien – Palestina, Urartu, Alfred Kröner Verlag, Stuttgart, 1961, P. 207.
- (15) Reinhold, Meyer, *History of Purple as a Status Symbol in Antiquity*, Bruxelles, 1970, p. 71-73.
- (16) Gordon, Cyrus H.-Waltham, Massachusetts, *The Authenticity of the*

phoenician Text from Parahyba, P. 78 in: Or NS, 37, 1968, P. 75-80; Friedrich, Johannes, *Die Unrechtheit der phönizischen Inschrift aus Parahyba*, P. 421-424 in: Or NS, 37, 1968, P. 421-424; Frank Moore Cross, Jr. *The phoenician Inscription from Brazil. A Nineteenth - century Forgery*, Cambridge, Massachusetts, P. 437-460 in: or NS, 37, 1968, 437-460; Gordon, Cyrus H.- Waltham, *Reply to Professor Cross*, P. 461-463 in: Or NS, 37 1968, P. 461-463; Or NS, 37, 1968, P. 78.

(17) *KAI*, I., 5-1-2, P.1; *KAI*, II., P. 7-8;

أحمد حامدة، مدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية، جامعة دمشق، ١٩٩٧، الطبعة الثانية، مطبعة الداوودي، ص ٦٣.

(١٨) د. حسن عبد العزيز أحمد، مجلة الدارة، العدد الرابع، ص ١٨٠.

(19) *KAI*, I., 11.1.2.3.4; *KAI*, II., P. 16.

حامدة، مدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية، ص ٧٥.

(٢٠) د. حسن عبد العزيز أحمد — مجلة الدارة ص ١٨٠.

(21) *KAI*, I, 13.1.2.3.4.5.6.7.8; *KAI*, II., P. 17; ٨٢، ص.

(22) *KAI*, I., 24.9.10.11.12.13; *KAI*, II., P. 30; ١٠٤، ص.

(23) *KAI*, I., 29.1.2; *KAI*, II., P. 47; ١٠٨، ص.

(24) *KAI*, I., 33.1; *KAI*, II., P. 51; ١١٦، ص.

(25) Heltzer, M., *Goods, Prices and the organization of trade in Ugarit*, Wiesbaden, 1978, P. 121-122;

أ. ش. شفمان، ثقافة أوغاريت، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٦.

(26) Bibel, 1 *Könige*, 9-14; *Könige*, 10, 11; Golo Mann und Alfred Heuß, *Propyläen. Weltgeschichte*, zweiter Band, 1962, P. 76.

(٢٧) نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، المجلد الثالث، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص ٥٠.

- (28) *Archiv für Orientforschung*, Berlin, (Später) Graz, XIX, 1959-1960, P. 194-195.
- (29) Von Soden, W. H., *Studies in Akkadian of Ugarit dating and Grammar* ... 40, 1991.; Dietrich, M., Loretz, O., *Mantik in Ugarit keilalphabetische texte der opfer – Schaumen Sammlungen nekromanite*. Alsap 3- 1990.
- (30) Manfred Dietrich, Hans Martin Kümmel, Oswald Loretz und Heinrich Otten, *Texte aus der Umwelt des Alten Testament*, Band I, Rechts- und Wirtschaftsurlunden, Historisch – chronologische Texte. II, Band I., Lieferug 5, 1985, *Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn*, P. 507.; M. Dietrich, O., Loretz, J., Sanmartin, *Die Keilalphabetischen Texte aus Ugarit*, 2.30.
- (٣١) د. حسن عبد العزيز أحمد، مجلة الدارة، العدد الرابع، ١٩٨٠، ص ١٧٧.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ١٧٧.
- (٣٣) المرجع السابق، ص ١٧٨.
- (34) *KAI*, II., P. 54-55; Hamdeh, A., *Die sozialen Strukturen im Phönizien des ersten Jahrtausends vor Christus*, Würzburg, 1985, P. 84-85, 87; ١٢٥-١٢٢، حاملة، مدخل.
- (35) *KAI*, II., P. 73-74; ١٧٤-١٧١، حاملة، مدخل.
- (36) *KAI*, II., P. 60-62; ١٣٧-١٣٤، حاملة، مدخل.
- (37) Gordon, UT, Glossary, 1477, P. 433; Aistleitner, J., *Wörterbuch der ugaritischen Sprache*, Berlin, 1963, 1567 p. 184.
- (38) Heltzer, M., *Goods and prices and the Organization of Trade in Ugarit*, Wiesbaden, Dr. Ludwig Reichert Verlag, 1978, P. 121-125.
- (39) *Ibid*, P. 125-139.
- (40) Jean – Paul Rey – coquais, *Une Nouvelle Inscription de Rouad*, P. 73-76 in: *Les Annales archeologiques Arabes Syriennes*; Damas, 1968, P. 69-76.